



إعادة بناء جدار برلين روائياً

حكاية أسرة ألمانية شرقية تستعيد الماضي الذي لا أحد يرغب في تذكره



جنود ألمانيون شرقيون عند الجدار في أواخر لحظات الانقسام الألماني

الأمم، وكان سقوط الجدار كليل بإخفاء الدعايات التي كان أنتجها بناؤه. وعلى الرغم من الأسى الذي يحضر لدى كل من المبدعين، إلا أن استعادة جدار برلين وترميمه رمزياً وروائياً لاستقاء العبر والدروس منه، باتيان في سياق الانفتاح على التاريخ ووجوب التحلي بالمسؤولية والجرأة على فتح ملفاته، وعدم التغاضي عما خلفه من تأثيرات عميقة في النفوس.

هل انتهى تأثير جدار برلين بمجرد سقوطه؟ كيف أعاد الروائيون بناء الجدار بطريقتهم الروائية؟ هل باستعادة تأثيرات الجدار من منظور جديد الاعتبار واستلهام الدروس التاريخية؟

متجددة عليهم، أسئلة لا تخلو من أبعاد وجودية، وتروم البحث في المخبوء، وما يمكن أن يشكل نقاشاً تنافر بين الواقع والمأمول. وتتناول تاريخ العلاقة بين ألمانيا الشرقية وألمانيا الغربية من وجهة نظر فتاة غربية، تعود إلى خمسينات القرن الماضي وحتى الزمن الراهن، وكيف أن كل مرحلة تسم أبناءها، والمخضرمين الذين ينقلون من مرحلة إلى أخرى، والأجيال الجديدة، بصفات وملامح مختلفة.

وتتقاطع أنا بطلة بوجه مع سيرتها إلى حد بعيد؛ تنحدر أسرتها من الشرق وأبؤها قساوسة، وتتمتعان بشغف للكتابة منذ نعومة أظافرهما، ودرستا في معهد الأدب الألماني في لايبستيس، إلا أن ريكاردا بونجه درست بعد ذلك علم اللاهوت البروتستانتية. ولعل تجلي محطات سيرتها لدى كل من مكسيم ليو ومواطنته ريكاردا بونجه، في روايتهما يجعل منهما نموذجين للروائيين الذين يقترنون مواجهة الذاكرة بكل حملتها، لم يتعاميا عن تأثير تحول تاريخي مفصلي على حياتهم، ولم يحاولوا الهروب إلى

السياسة أنتجت كوارث عائلية، ولعبت دوراً سلبياً في تفتيت المجتمع، ودفعه إلى الاستعداد والتعاطف، وما تلا ذلك من خلافات لا تزال آثارها تحفر عميقاً في الأرواح. وتحوّل إلى انعكاس الأمور، وانقلاب المفاهيم والقيم لدى بعض الناس، فئات وجدت نفسها في أتون الانقسام، وحاولت تصحيح الأوضاع، لكنها وقعت في فخاخ الواقع التي لا ترحم، ولم يكن أمامها إلا المضي في درب التحول عسى أن تعثر على مخرج للاستدلال إلى التصالح مع نفسها وواقعها.

تصوّر الكاتبة عدداً من التحولات الاجتماعية بعد انهيار جدار برلين، والعودة إلى ألمانيا الموحدة، وما صاحب تلك التحولات من تغييرات طالت مختلف الشرائح الاجتماعية التي وجدت نفسها في مواجهة واقع جديد مختلف، وعليها التأقلم معه بطريقة تخفف من الصدمات التي قد تنجم، وتهدئ من مخاوف التغيير بطريقة حذرة. بالموازاة مع التحولات الكبرى، تركّز بونجه على التغييرات التي اجتاحت الأفراد، وأعدت طرح أسئلة

إلا أنها لا تزال حية في إطار أسرته، وإلى حد كبير مثل روح هائمة لا تجد إلى الراحة سبيلاً. وفي وقت ما بعد أن انقضت كل شيء توقفت الأحاديث عن معارك تلك المرحلة، لربما أمل الجميع بأن الأمور ستحل نفسها بنفسها، بحيث يشفى الزمن الجديد جراح الماضي، لكن المسألة لازمت الراوي بالحاح، فراجع الوثائق الرسمية ونبش في خزائن وصناديق، فعثر على أوراق وملفات سرية مخبأة.

ارتحل الراوي إلى الماضي ليكشف النقاب عن المخبوء الذي لا يراد الحديث عنه، التام شمل الأسرة المصغرة، وكانها كانت في انتظار الظهور مرة أخرى لتبدي نفسها من جميع الجوانب، ولتصحيح بعض الأمور، وربما للتنفيس عن بعض الغضب والحزن الذي ما زال قائماً.

درب التحول

أما الألمانية ريكاردا بونجه فإن الرواية تمثل بالنسبة لها رحلة بين طيات التاريخ الألماني الحديث، ونافذة للغوص في بنية المجتمع الذي عانى من الانقسامات والشروخ والعداوات، وسبيل البحث عن اليات لتهدئة المخاوف المستقرة في النفوس، والتي تلقي باعنائها على كواهل المكتوبين بنيرانها تاريخياً.

أثارت الرواية أسئلة عن كيفية تأثير جدار برلين وانهياره على جيل بأكمله اجتماعياً ونفسياً، وكيفية بدء التحولات الاجتماعية بناء على تلك التأثيرات الناجمة عن الجدار الذي تضخم نفسياً وأصبح عائقاً بين المرء وتاريخه، ناهيك عما خلفه من شروخ نفسية عميقة في الوجدان، وبين الأهل الذين تآثروا على طرفه.

تستوحي بونجه أجواء روايتها "آخر الأيام الدافئة" من سيرتها الحياتية، وخاصة مرحلتها الثمانينات والتسعينات من القرن العشرين، بالضاحية الأكثر ثراءً في مدينة فيسبادن، كما تعود بالتاريخ إلى عام 1961 قبل بناء الجدار مباشرة، وتلتقط الآثار النفسية والتاريخية على البشر والامتكنة معا.

تصف الكاتبة حالات من الحب والحزن والقهر والخيانة، وكيف أن

الشرقية الديمقراطية، وبعدها سقوط جدار برلين، وتفكك الاتحاد السوفييتي. يقتفي ليو في روايته حكايات أسرته الألمانية الشرقية؛ يعود إلى جده غرهارد القابع في المستشفى، وقد أصيب بجلطة دماغية علقت مركز اللغة في دماغه، ولم يعد قادراً إلا على التعبير إلا عن عواطفه، أما الجانب العقلاني فهو معوق. يخطر في بال الراوي أن الوضع كان معكوساً تماماً.

يحمل عنوان الرواية تحذيراً مسبقاً للقراء عبر الطلب منهم أن يكون قلبهم مستعداً، ويكون الاستعداد هنا لجانبه حكايات صادمة من ماضي لا يراد تذكره واستحضاره، كما أنه يحض على ضرورة التحلي بالقوة لمواجهته وتعرية أوهامه ونزع القداسة أو الدناسة عنها، والنظر إليها بجرأة ومقاربتها بشجاعة بغية تخطي المحن والكوارث التي خلفها ولا تزال تداعياتها وتأثيراتها حاضرة في حياتهم.

يرجع ليو إلى مرحلة الانقسام التي شطرت ألمانيا، لا من الناحية الجيوسياسية فحسب، بل أيضاً من الناحية النفسية التي لا تزال تأثيراتها مستمرة ومتغلغلة في أذهان الجيل الذي عاش نكبة الانقسام، ومرّ بالحقبة الانتقالية، وتحطيم جدار برلين، ثم حاول التحايل على ماضيه بمفارقاته وفجائعه عبر تناسيه والمكابرة عليه.

يلفت الروائي إلى أن الجدار النفسي الذي تشاهق وارتفع عبر التراكم الزمني لا يقل خطورة عن الجدار الحقيقي الذي انهار، لكن النفسي ظل منتصباً يلقي بظلاله على ذاكرة الأجيال الجديدة، ويحاول

الحث على الاعتبار واستلهام الدروس والحكم، ويشير إلى أنه بعد ثماني عشرة سنة من سقوط جدار برلين

غاب البطل الصارم، كان يجلس أمامه رجل عاجز يستحق المحبة. عند وداعه تعانقا. تمنى لو يعود إلى جمهورية ألمانيا الديمقراطية كي يفهم ما الذي حصل حقيقة هناك مع جده ووالده ومع، ما الذي أدى إلى تباينهم عن بعضهم بعضاً، وما الذي كان على تلك الدرجة من الأهمية حتى جعلهم غرباء عن بعضهم بعضاً كذلك.

وبالرغم من أنه مضى وقت طويل على انهيار جمهورية ألمانيا الديمقراطية



هشام حسين
كاتب سوري

لا يخفي تأثير التحولات التاريخية الكبرى عن حياة الشعوب والأفراد ببساطة، بل يدوم طويلاً، ويعود إلى إنتاج نفسه بصور مختلفة، بحيث يظل متجذراً يطل برأسه بين حين وآخر من خلال تمثيلات أدبية وفنية عديدة. من التحولات التي مثلت منعطفاً في التاريخ الحديث، سقوط جدار برلين سنة 1989؛ هذا الجدار الذي ظل حاضراً رمزياً في نفوس أولئك الذين عاشوا بناءه وشهدوا سقوطه، وبين البناء والسقوط كانت هناك حيوات تتلف، وأخرى تندثر وتتبدد في معمة الاستعداد أو دائرة الترقب والانتظار.

تناول الألماني مكسيم ليو في روايته «ليكن قلبكم مستعداً - حكاية أسرة ألمانية شرقية» وقائع ومحطات من الحرب العالمية الثانية، وسقوط النازية وتفكك ألمانيا، وكيف قامت جمهورية ألمانيا الشرقية الديمقراطية، وبعدها سقوط جدار برلين، وتفكك الاتحاد السوفييتي

هل انتهت تأثير جدار برلين بمجرد سقوطه؟ كيف أعاد الروائيون بناء الجدار بطريقتهم الروائية؟ هل باستعادة تأثيرات الجدار من منظور جديد الاستعداد أو للحض على الاعتبار واستلهام الدروس للتحض على الاعتبار واستلهام الدروس التاريخية؛ إلى أي حد تمكن الروائيون من ترميم تصدعات الجدار النفسية التي خلفها الجدار بحضوره المادي والرمزي؟

جدار نفسي

تناول الألماني مكسيم ليو في روايته "ليكن قلبكم مستعداً - حكاية أسرة ألمانية شرقية" وقائع ومحطات من الحرب العالمية الثانية، وسقوط النازية وتفكك ألمانيا، وكيف قامت جمهورية ألمانيا



لقطتان احتفاليتان لجدار برلين بين زمني أول السقوط واليوم